مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد 07 / العـدد: 02 (2021)، ص 165 - 184

الأضرحة بمدينة معسكر في الفترة العثمانية

Mausoleums of the city of Mascara during the Ottoman period

د. عبد القادر قرمان[*1]
[1] جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم (الجزائر)، karmanea2000@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/07/17 تاريخ القبول: 2021/09/10 تاريخ النشر: 2021/12/20

ملخص:

شهدت مدينة معسكر خلال الفترة العثمانية تشييّد العديد من المنشآت المعمارية، نذكر منها على وجه الخصوص الأضرحة الجنائزية، التي توزعت في مختلف أحيائها، حيث أنها بنيت من قبل بايات بايلك الغرب أو تطوعا من قِبل سكان المدينة، لذلك نجدها تنقسم إلى قسمين، فالقسم الأول خاص بالفئة السياسية المتمثلة في البايات، أما القسم الثاني فهو خاص بالعلماء والأولياء الصالحين، الذين اشتهرت بهم المنطقة وذاع صيتهم بعلمهم في البلاد عامة في هذه الفترة.

كلمات مفتاحية: الضريح، مدينة معسكر، الزاوية، بايلك الغرب، الجزائر.

Abstract:

The city of Mascara witnessed the construction of many architectural installations during the Ottoman period, of which we mention in particular the funerary shrines, as they were built by the bayat beylik West or voluntarily by the city's residents, so we find it divided into two parts, the first section is special The political category represented by the bayat, and were, and the second section is for the righteous scholars, for whom the region was famous and famous for their knowledge in the country in general during this period .

Keywords: Mausoleum; Mascara city; zawia; Beylik west ; Algiers.

1. مقدمة:

تعد مدينة معسكر من المدن الجزائرية المشهورة بكثرة معالمها الأثرية، التي ترجع جلّها إلى فترة التواجد العثماني في الجزائر، حيث أن ترقيتها إلى عاصمة لبايلك الغرب ساهم إلى حد كبير في اهتمام البايات بتعميرها وتوسعة نسيجها العمراني، هذا ما جعلها

* المؤلف المرسل

مدينة مكتملة البنيان والمرافق، ووجهة مفضلة للعلماء والطلبة والتجار والحرفيين من كل أقطار البلاد، لذلك حرص البايات لتطويرها وتوفير كل مستلزمات الحياة، خاصة منها المنشآت المعمارية المختلفة من دور للعبادة والسكن والراحة، حيث تنوعت بين المنشآت الدينية والمدنية والعسكرية، فمن هذه المنشآت المتبقية نذكر الأضرحة الجنائزية التي مازالت أغلبها باقية صامدة تحفظ ذاكرة صاحبها، سواء كان حاكمًا أو عالمًا أو وليًا صالحًا، رغم عوامل الزمن ومحاولات المستدمر الفرنسي إزالتها من الوجود لطمس تاريخ المنطقة وأعلامها وعلمائها وأبطالها من ذاكرتهم.

فالأضرحة رغم ما صدر عنها من فتاوى شرعية لعلماء الدين حول حُرمتها لأنها تعلو في البنيان على القبور، إلاّ أن ساكنة المدينة وحُكامها شيّدوها على قبورهم وقبور العلماء والصلحاء، فكثرت في المدينة وأحوازها، بل صارت مرتبطة بمنشأة دينية أخرى ألا وهي الزوايا، وصارت علمًا عليها تشتهر بشهرته وتزدهر بطلبته، وهذا ما وقفنا عليه في مدينة معسكر المشهورة بأضرحتها منها ضريح سيدي محمد أبي جلال وسيدي بوسكرين وسيدي موفق وكذلك ضريح أبي راس الناصري الملتصق بالزاوية التي كان يدرس فيها وهو المشهور على الإطلاق في المدينة عامة ورحبة باب علي خاصة، فهذا العالم الذي سكن قلوب ساكنة المدينة في حياته نظير ما قدمه من تعليم وتكوين وإرشاد لهم، دفعهم ذلك إلى حفظ قبره بضريح بجانب منبره الذي كان يُدرس فيه، كما أنهم يخصونه بزيارات يومية وأسبوعية له ولكل الأضرحة الموجودة في المدينة.

تظهر هذه الأضرحة في تخطيطها وشكلها المعماري والزخرفي مختلفة باختلاف صاحبها المدفون بداخلها، فالأكثر شهرة أكثرهم اهتماما عمارة وزخرفة، إلاّ أنها تشترك في مجملها بتخطيط معماري متشابه بمسقط مربع أو شبه مربع تعلوه قُبة، وهو السائد في كل العالم الإسلامي تقريبا. وسنحاول من خلال هذا البحث جرد كل الأضرحة الموجودة في مدينة معسكر، وكذلك دراستها وفق إشكالية تتمحور حول: فيما تتمثل الأضرحة الموجودة في مدينة معسكر، وما هي مميزات تخطيطها المعماري والفني؟

2. تعريف الضريح:

2-1- لغة:

الضريح من الناحية اللغوية كلمة مشتقة من فعل "ضَرَحَ"، بمعنى القبر حفره أو شقه ويقال ضرح القبر، جعله ضريحا ولم يلحده ويقال: ضرحوا لميتهم ولحدوا له. وضرح الشيء رمى به ونحاه (منظور، د.ت، صفحة 526). وضرحت عني الثوب، ألقيته. وقد سُمي ضريح لأنه يشق في الأرض شقا وقد يسمى القبر كله ضريح (طه، 1988، صفحة 126)، كما قد يسمى القبر الذي بلا لَحْد ضريحا، أما جمعه فهو أضرحة، يقصد بها المبنى الذي يقام على قبر الميت. (محمد، 2002، صفحة 20)

2- 2- اصطلاحا:

هو مدفن سلطان أو أمير أو رجل صالح أو أي إنسان آخر له مكانة تدعو إلى تخليد ذكراه (غالب، 1988، صفحة 156)، ومما تجدر الإشارة إليه هو أن التسمية التي رددها علماء الآثار العرب والأجانب على السواء وأطلقوها على المدافن الإسلامية وهي الأضرحة، ليست صحيحة في غالب الأحوال، لأن المدفن لا يكون ضريحا إلا إذا كان شقا في وسطه، وهذا يعني أن ليس كل مدفن ضريحا، فقد يكون لحدا، ومن جملة الخطأ الواقع في هذا الصدد ما نراه في غالبية المراجع العربية والأجنبية من وصف مدفن أو قبر النبي –صلى الله عليه وسلم - بأنه ضريح، وهذا ليس بصحيح لأنه لحد للنبي– صلى الله عليه وسلم – ولم يضرح له كما تذكر كتب السنة والفقه الإسلامية. (بنبلة، 2007- 2008، صفحة 93)

لقد تعددت مفاهيمه من الناحية الاصطلاحية وأطلق عليه عدة تسميات مختلفة باختلاف المناطق والأزمنة التاريخية نذكر منها ما يأتي:

- **القُبة:** هي من المظاهر المعمارية التي تلفت النظر في العمارة الإسلامية (عبدالعزيز، 1965، صفحة 40)، وهذا العنصر موروث عن الساسانيين والبيزنطيين. ثم ظهرت لتغطي الغرف المربعة والمستديرة للأضرحة، وأطلق الجزء على الكل وأصبح يسمى بها الضريح كله.

- **التربة:** المقصود بها المبنى الضريحي الذي يقام على رمس الميت، واستعمل هذا المصطلح عند الأتراك. (عزوق، 2007، صفحة 136)
- **المشهد:** هو من الكلمات التي تحمل مدلولا دينيا معيّنا، وهو المسجد المدفني، أي الذي بُني في الأساس ليكون مدفنا للشخص أو الأشخاص الذين يتمتعون بمكانة روحية خاصة لدى الناس، وهذا المدفن غالبا ما يكون مخصصا للمتوفين من آل البيت النبوي الطاهر، ذُكْرانا كانوا أم إناثا، وأحيانا يُدفن فيه غيرهم من الأفراد العاديين، الذين عرفوا بين أهل زمانهم بالتقوى والصلاح والعبادة، وهذا المصطلح مشهور عند الشيعة ومتداول في مصر والعراق. (لمعي، د،ت، صفحة 23)
- **المزار:** هو البناء الذي يستهدفه عامة الناس بالزيارة ويقدمون له الهدايا والنذور والقرابين تعبيرا عن عاطفتهم نحو الميت الذي دُفن فيه، حيث أطلق عليه هذا المصطلح نسبة إلى الزيارة، وفي بلاد المغرب استعملت كلمة "مربوط" للدلالة على المدفن وقد عُرف أول مزار في قبة الصخرة بالقدس. (سامح، 1988، صفحة 9) (عزوق، 2007، صفحة 137)
- **المقام:** المقصود به ذلك المكان الذي فيه قبر لنبي أو شيخ أو عالم له مكانة عند الناس لعلمه وتقواه ووَرعه، وقد لا يكون في المزار قبر وإنما يرمز المكان إلى واقعة أو حدث له معاني روحية كبيرة في قلوب الناس مرتبطة بالشخصيات الدينية، ومن ثم يبنى في المكان مزار يرتاده الناس للزيارة والصلاة، وطلب البركة من صاحب الضريح. (طه، 1988، صفحة 107)

2- 3- عمارة:

يتخذ الضريح شكلا هندسيا على صورتين: قبر على شكل برج وقبر على شكل قبة، وقد تنوعت الأضرحة فكان منها البسيط، المنفرد البناء، المتواضع المواد، المكون من غرفة واحدة مقبّبة مربعة تضم التربة وحدها (غالب، 1988، صفحة 156)، حيث وضع لها

الباحثون تقسيما على أساس أن الأصول المعمارية للضريح كثيرا منها مستوحاة من عمائر وجدت قبل الإسلام وهي كالآتي:

- **التصميم المربع:** هو الذي يُغطى بقبة وتأثيره مسيحي، إذ وجدت بعض الأمثلة لهذا النمط في سوريا.(Marçais, 1954, p. 299)
- **التصميم الدائري:** شكله يشبه الأبراج، ويرجع أصله إلى منشآت بسيطة وجدت قبل الإسلام. (أرنست، 1966، صفحة 60)
- **الأضرحة ذات التصميمات الكبيرة:** هي تلك التي تقبب بقبة كبيرة ونجدها خاصة في إيران، تظهر على شكل المنازل التي كانت تعلوها قباب في المدن الصحراوية الفارسية. (أرنست، 1966، صفحة 62)

كما كانت القبور في إيران على شكل أبراج أسطوانية، يعلوها أحيانا سقف مخروطي الشكل، وكانت بعض الأضرحة على شكل قاعدة مربعة مغطاة بقبة يوضع عليه نصب تذكاري على هيئة شاهد قبر، فهذا النوع من العمائر انتشر في المشرق كما في المغرب حتى أصبح الطراز المخصص للضريح الإسلامي المعروف بـ"التربة" أو "القبة" (طه، 1988، صفحة 126)، ولتحويل المسقط المربع إلى دائرة عملت منطقة انتقال مثمنة المسقط، فتطورت خلال العصور اللاحقة، وتعددت أشكالها في البلاد الإسلامية باستعمال الحنايا الركنية أو المثلثات الكروية أو الاثنين معا، مع تشكيل هذه الأسطح بالمقرنصات في بعض الأحيان، كذلك تنوعت طرق تشكيل السطح الخارجي لمنطقة الانتقال.

أما السطح الخارجي للقبة فقد استعملت له الزخارف الجصية الملونة أو غير الملونة عند البناء بالطوب مثلما نجده في إيران وتركستان وبعض مباني الأناضول، كما شاع استعمال البلاطات المزججة والطوب المزجج في عمل الزخارف، أما في حال استعمال الحجارة كما هو الحال في العمارة المملوكية في كل من مصر وسوريا، فقد استعملت الزخارف الهندسية أو النباتية أو تشكيل مشترك من الاثنين (بنبلة، 2007- 2008، صفحة 93)، وقد يقام الضريح قريبا من مدرسة أو ملاصقا لها أو ملحقا بجامع أو يكون

هو النواة الأولى لمسجد فخم المظهر متعدد المآذن، محاطا بالبرك والجنائن والأشجار، وتحتوي غرفة الضريح على محراب أحيانا. (غالب، 1988، الصفحات 256- 258)

3- نشأة الأضرحة وتطورها خلال العصر الإسلامي:

عرف الإنسان الدفن منذ عصور قديمة جدا، حددها العلماء منذ فترة فجر التاريخ، فتعددت أساليب بناء القبور باختلاف المناطق والأزمنة التاريخية، حيث وُجدت مدافن على شكل مسكن، وهي عبارة عن مناضد حجرية تتكون من عدة غرف، وأشكال أخرى عبارة عن مغارات في الصخور، وفي العمارة المصرية القديمة ظهرت عمارة الأهرامات والمصاطب ونفس الفكرة ظهرت في حضارة بلاد الرافدين، أما عند الإغريق فقد ظهرت عمارة المعابد، وخلال العصر الروماني عرفوا بعض الأنواع من الأضرحة عبارة عن أقبية تحت الأرض، ثم المقابر التذكارية المستديرة ثم الأضرحة الهرمية. (غالب، 1988، صفحة 256)

ومن تقاليد العرب خلال تلك الفترة أنهم كانوا يضربون الخيام على قبور موتاهم، ويتلقون التعازي فيها، ثم يقيمون فيها مدة غير محددة اعتقادا منهم بأن الموتى يأنسون بوجودهم إلى قربهم، ولما جاء الإسلام استمر هذا التقليد، ولعل أول خيمة أقيمت في الإسلام كانت على قبر أم المؤمنين زينب بنت جحش بعد وفاتها في سنة 20هـ/ 641م. (عزوق، 2007، صفحة 137)

وفيما يخص ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم فأصله حجرة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها التي توفي فيها عليه الصلاة والسلام، ثم ألحقت بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم في عهد الوليد بن عبد الملك، ثم زودت بقبة في عصر المماليك. (دحدوح، 2009- 2010، صفحة 362)

وقبل أن نبدأ الحديث عن تاريخ نشأة هذا التقليد وعن تطور بناء الأضرحة في الإسلام وما يقام فوقها من القباب والأقباء وما يجاورها من المساجد والزوايا والرُبط، لابد أن نعرف أولا تاريخ نشأة زيارة القبور، وفي ذلك يحدثنا أبو هريرة رضي الله عنه

فيقول:" زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، وقال استأذنت ربي أن استغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزورها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكّر بالموت وفي رواية تذكركم بالآخرة". وروي عن السيدة فاطمة رضي الله عنها ابنة النبي صلى الله عليه وسلم أنها كانت تزور قبر عمها حمزة في بعض الأيام وتبكي عنده، وقيل عن عائشة رضي الله عنها أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

أما حكم الدين في زيارة القبور عامة وأضرحة الأولياء بصفة خاصة، فقد جاء في كتب الفقه على المذاهب الأربعة أن زيارة القبور مندوبة، على أنه ينبغي عند زيارة القبور أن يشتغل الزائر بالدعاء والتضرع والاعتبار بالموتى وقراءة القرآن للميّت، فإن ذلك ينفع الميّت على الأصح، كما ينبغي أن تكون الزيارة مطابقة لأحكام الشريعة، فلا يطوف حول القبر ولا يُقبّل حجرا، ولا عتبة ولا خشبا، ولا يطلب من المزوّر- أي الولي أو الشيخ- شيئا إلاّ غير ذلك (الباشا، 1979، صفحة 139).

أما عن مباني القبور، فقد كرّه الإسلام البناء على الأضرحة، كما كرّه أيضا إقامة المزارات واتخاذها أماكن للصلاة، حيث يُروى أن الخليفة "عمر بن الخطاب رضي الله عنه" كان في سفر فرأى قوما ينتابون مكانا للصلاة فقال: "ما هذا؟ فقالوا: هذا مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إنّما هلك من كان قبلكم بهذا، أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد، من أدركته الصلاة فليصل وإلاّ فليمض". (ماهر، 1971، صفحة 46)

ومع مرور الزمن نشأت في العمارة الإسلامية دون غيرها عمائر أقيمت على المقابر عرفت بالقباب، وقد كانت القُبة في أول أمرها عنصرا معماريا أريد به إظهار أهمية بعض أجزاء المسجد، كما هو الحال في المسجد الأموي بدمشق ومسجدي الأزهر والحاكم في مصر، ومن ناحية أخرى للإشارة إلى هذا الجزء من المبنى، كما أقبل المسلمون على استعمال القباب في تغطية المبنى المقام على قبور الشخصيات البارزة مثل الملوك

والسلاطين، أو قبور أولياء الله الصالحين، حتى أطلق اسم الجزء على الكل وصارت كلمة "قبة" اسما للضريح كله، ومن هنا جاء المثل السائر "تحت قبة الشيخ".

وعن أقدم ضريح في الإسلام أقيمت عليه قبة يعود إلى القرن الثالث الهجري، حيث عُرف هذا الضريح باسم "القبة الصليبية للخليفة العباسي "المنتصر" المتوفي سنة 246هـ/821م، وهو يوجد في مدينة "سامراء" بالعراق على الضفة الغربية لنهر دجلة إلى الجنوب من قصر العاشق، فقد ضم الضريح إلى جانب المنتصر الخليفة المعتز والمهتدي. ويتكون الضريح من مثمنين، خارجي وآخر داخلي وفي الوسط توجد غرفة مربعة، فهو بذلك يشبه في تخطيطه إلى حد كبير قبة الصخرة (69- 72هـ/688- 691م)، حيث بُني في أركان الغرفة الأربعة مقرنصات حَولت المربع إلى مثمن أقيمت فوقه القبة. (دحدوح، 2009- 2010، صفحة 364)

انتشر بعد ذلك اتخاذ الأضرحة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولاسيما إيران والهند، ومن أشهر الأضرحة الإسلامية نذكر "ضريح إسماعيل الساماني" المبني سنة 296هـ في مدينة "بخارى"، ثم ضريح الإمام "علي" رضي الله عنه في "النجف" الذي بناه الحمدانيون سنة 317هـ، ثم ضريح "محمد بن موسى" في مدينة "قم" بإيران سنة 366هـ، وضريح "أولغ بك" في غزنة و"تاج محل" (ماهر، 1971، صفحة 46) في أكرا، ومقابر الأئمة الزيدية في صعدا باليمن، وكذلك ضريح "السبع بنات" في الفُسطاط المبني سنة 400هـ، كما احتفظت لنا جبانة أسوان بمجموعة كبيرة من الأضرحة ذات القباب التي يرجع تاريخ معظمها إلى العصر الفاطمي في القرن الخامس الهجري (الباشا، 1979، صفحة 140)، هذه الدولة التي أقامت الكثير من الأضرحة واقتصرتها على آل البيت وكبار رجال الدولة من الشيعة مثل: السيدة "نفيسة" و "رقية" و "عاتكة" و "الجعفري" و "بدر الجمالي"، وعرفت بالمشاهد أسوة بما أطلق على أضرحة الأئمة العلويين. فلما جاءت الدولة الأيوبية رأت أن تحول الأنظار عن أضرحة الشيعة وذلك ببناء أضرحة لأئمة السنة. فأقامت أم السلطان الملك الكامل قبة الإمام الشافعي سنة 608هـ، وأجرت عليها

الماء من بركة الحبش، ومنذ ذلك الوقت أقبل الناس على بناء مقابر موتاهم بجوار الإمام الشافعي، وهو يعتبر أكبر الأضرحة في مصر على الإطلاق وأقدم قبة خشبية فيها، وذلك إذا استبعدنا الأضرحة بالمدارس والخانقاوات. (ماهر، 1971، الصفحات 26- 27)

أما في بلاد المغرب فإنه من الصعب تحديد تاريخ ظهور الأضرحة المغطاة بقبة، ولعل أقدم الأضرحة المعروفة قبة "سيدي بوخريسان" (486هـ- 1096م)، ثم تليها قبة البروديين المرابطية المشيّدة فيما بين (514- 525هـ/1120-1130م)، يليها ضريح "المهدي بن تومرت"، الذي ذكرت النصوص التاريخية بأنه من بناء "عبد المؤمن بن علي" (524- 558هـ/ 1130- 1163م)، وتواصل بعد ذلك بناء الأضرحة منها ضريح "سيدي أبي مدين" بتلمسان، الذي بناه الخليفة الموحدي "محمد الناصر" (595- 610هـ/ 1198- 1218م)، وإلى هذه الفترة بنيت العديد من الأضرحة منها: ضريح "سيدي إبراهيم" (765هـ/ 1363م)، وفي المغرب الأقصى توجد نماذج تعود إلى العهد المريني، مثلما هو الحال في الأضرحة الأربعة التي تقع "بشلة" بالقرب من مدينة الرباط، والتي دفن فيها كل من السلطان أبو يعقوب والسلطان أبو ثابت والسلطان أبو سعيد والسلطان أبو الحسن، وهي مؤرخة فيما بين (763- 805هـ/ 1361- 1398م)، وأضرحة السلاطين السعديين بفاس. (دحدوح، 2009- 2010، صفحة 365)

وخلال العهد العثماني كثرت الأضرحة والقباب، وأصبحنا لا نكاد نجد مدينة أو قرية بدون العديد من الأضرحة والمشاهد، وعند كل بناية أناس يتبركون ويدعون ويزورون ويتقربون، يقيمون الحضرة ويقدمون الهدايا ويذبحون الذبائح، آتين من كل فج عميق. وصار المُشاهد المُحايد لا يعرف ما يقول وهو أمام ذلك، هل يشاهد مآدب أو مآتم، وهل العابدون يعبدون الله أو يعبدون الشيوخ والمرابطين. (سعدالله، 1998، صفحة 467)

كان العثمانيون يتقربون إلى المرابطين بشتى الوسائل كبناء المشاهد والزوايا والوقف عليها، فهذه مدينة الجزائر عاصمة الدولة كانت تعج بالأضرحة والقباب المقامة على الأولياء والصالحين، ولقيّت اهتماما من طرف الحكام، حيث قام الداي الحاج أحمد

العلج الأشجي في سنة 1108هـ/ 1696م ببناء ضريح "عبد الرحمن الثعالبي" المتوفي سنة 875هـ/ 1470م (بنبلة، 2007- 2008، صفحة 99)، كما اشتهرت أيضا مدينة تلمسان ونواحيها بأضرحتها ومشاهدها منها ضريح سيدي الحلوي الأندلسي، وضريح الولي "محمد بن علي حفيد الولي عبد الله بن منصور" الذي بناه الباي إبراهيم المليانى في سنة 1174هـ بأمر من باشا الجزائر، كما أن الباي مصطفى المانزالي قد جدد في سنة 1218هـ ضريح الولي "عبد الله بن منصور" (بنبلة، 2007- 2008، صفحة 263). وفي مدينة مستغانم بنى الباي مصطفى بوشلاغم بِرَحْبة المطمر قبة جليلة في سنة 1126هـ/1714م وحبسها على نفسه ودفن عقبه وعقب عقبه (المزاري، 1990، الصفحات 275- 276)، كما عُرف عن الباي محمد الكبير انه اعتنى ببناء مشهد الولي "محمد بن عودة" في ناحية منطقة غليزان، والولي "أحمد بن يوسف المليانى" بمدينة مليانة (سحنون، 1973، صفحة 132)، واشتهرت مدينة قسنطينة شرق الجزائر العاصمة بمجموعة من الأضرحة نذكر منها ضريح الشيخ "سيدي الكتاني". (دحدوح، 2009- 2010، صفحة 367)

أما عن مدينة معسكر عاصمة الغرب الجزائري في هذه الفترة، فقد شهدت بناء العديد من الأضرحة تخليدا لعلمائها وباياتها، وهي على أنواع، فمنها أضرحة ملحقة بمؤسسة دينية سواء كان جامعا مثلما نجده في الجامع الكبير، أين نجد قبة اشتهرت باسم سيدي عبد القادر الجيلاني، التي تضم قبور بعض بايات معسكر، أو تكون ملحقة بزاوية مثلما نجده في زاوية أبي راس الناصري وزاوية سيدي بوسكرين، ومنها ما هو ملحق بمقبرة كضريح سيدي موفق، كما نجد أضرحة منفردة لا تتصل ببناء كضريح سيدي محمد أبي جلال.

وبالإضافة إلى ما ذُكر سابقا لاحظنا وجود الكثير من الأضرحة خارج المدينة، إذ أننا شاهدنا تقريبا في كل قرية ومدينة ضريحا أو أكثر، سواء كان متصلا بمقبرة أو منفصلا عنها، حتى أصبح رمزا أو تقليدا متعارفا عليه، وهناك من يربط وجود البركة والخيرات بوليهم الصالح، لذلك تعددت أوجه الاحتفالات ومواعيد المناسبات وأصبح هناك تنافس

بين القبائل والعشائر على كيفية إقامتها، كما أنها غدت وجهة للنسوة والزوار لطلب الشفاء من الأمراض المستعصية، وأماكن لممارسة بعض الطقوس الدخيلة على الدين الإسلامي، والتي اعتبرت من طرف العلماء مظهرا من مظاهر الشرك بوحدانية الله تعالى.

4- أضرحة مدينة معسكر:

4- 1- ضريح سيدي بوسكرين:

4-1-1- الموقع:

يقع هذا الضريح في الجهة الغربية من رحبة باب علي، ومن الجهة الجنوبية الغربية من زاوية سيدي بوسكرين ، وهو يعتبر كملحق معماري تابع لها.

4-1-2- المؤسس وتاريخ التأسيس:

هذا الضريح يفتقر إلى تاريخ تأسيسه ومؤسسه، إذ أننا لم نستطع التعرف على ذلك بسبب عدم وجود أي لوحة تأسيسية أو تذكارية تشير إلى ذلك، كما أننا لم نجد في المصادر المعاصرة للفترة أو بعدها أي معلومة تضمنت تاريخها، لكن من المحتمل أنه بُني خلال القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر الميلادي، وهو التاريخ الذي توفي فيه هذا العلاّمة.

4-1-3- وصف المخطط المعماري:

بُني هذا الضريح على شكل شبه مربع بمقاسات تبلغ 3,72م من الجهة الغربية و3,96م من الجهة الشرقية، و3,69م في كل من الجهة الشمالية والجنوبية. يتم الدخول إليه عبر مدخل يقع في الجهة الجنوبية الغربية للزاوية يبلغ ارتفاعه1,90م وعرضها80سم، وهو مُزيّن بعقد منكسر يعلوه إطار جصي بدون زخارف، ومزوّد بباب حديدي مقاساته(1,84م× 69سم)، كما زُيّن في الأعلى من جهاته الأربعة بإفريز مسنن من مادة الآجر، وعَبْر سُلم يتكون من 12 درجة نصل إلى فناء صغير مقاساته5,20م طولا و4,52م عرضا، كما كان يوجد بجانبه في الجهة الغربية ثلاثة عُيون مائية وهو ما توضحه الصورة القديمة للضريح، غيّر أنها الآن أغلقت خلال التعديلات التي طرأت على عمارته، كما تم

فصل الضريح عن الزاوية لتفادي اختلاط الطلبة بالزوّار، وفيما يخص مظهره العام فهو بسيط خال من الزخرفة، حتى من الداخل. تحتوي جدرانه الأربعة على حنايا مزوّدة بعقود صماء منكسرة متجاوزة الغرض منها حمل القبة التي تتوسط الضريح، ويقع قبر العالم سيدي بوسكرين في الجهة الغربية. (أنظر الشكل رقم02 والصورة رقم01)

4- 2- ضريح أبي رأس الناصري:

4- 2-1- الموقع:

يقع هذا الضريح في الجهة الشمالية الشرقية من زاوية أبي الراس الناصري، وهو يعتبر كملحق معماري تابع لها، لا يفصل بينهما سوى سور.

4- 2-2- المؤسس وتاريخ التأسيس:

واجهتنا صعوبة كبيرة في معرفة تاريخ تأسيس هذا الضريح، لعدم وجود لوحة تأسيسية تشير إلى ذلك، لكن حسب ما أشار إليه بعض المؤرخين من أمثال المزاري في قوله "...ودفن بعقبة بابا علي من المعسكر، فنسبت له تلك العقبة إلى أنّ بها اشتهر وعلى ضريحه قبة نفعنا الله به" (المزاري، 1990، صفحة 351)، وهذا يعني أنه بني في السنة التي توفي فيها أبي الراس الناصري (1238هـ/ 1823م)، في عهد حكم الباي حسن (1817-1831م) المشهور عنه ببناء القِباب، مثلما فعل للعالم سيدي علي أبي الوفا في سنة 1828م. (المزاري، 1990، صفحة 353)

4- 2-3- وصف المخطط المعماري:

يظهر الضريح في شكله العام بسيطا كبساطة صاحبه، يتم الوصول إليه حاليا عبر مدخل يقع في الجهة الشمالية، ندخل من خلاله إلى صحن صغير تتجمع فيه النسوة للتبرك بكرامات هذا الولي الصالح، لكن مدخله الأصلي كان مفتوحا في الجهة الجنوبية على صحن الزاوية، ويرجع سبب تغييره إلى تفادي اختلاط النساء الوافدات للزيارة مع الرجال القادمين للصلاة داخل الزاوية. ندخل إليه عبر مدخل بباب خشبي أصلي قليل الارتفاع مما يؤدي بالزائر إلى الانحناء، تبلغ مقاساته(1,79م طولا و79سم عرضا)، ومن

الداخل فهو خال من أي زخرفة، أما عن مخططه العام فهو يتخذ الشكل المربع بمقاسات تبلغ3,40 م طولا و3,23م عرضا وبمساحة تقدر بـ10,90م^2، كما نجد في جدرانه الأربعة حنايا مزودة بعقود صماء منكسرة متجاوزة، الغرض منها حمل القبة التي تتوسط الضريح، ويقع قبر العالم في الجهة الغربية. (أنظر الشكل رقم01 والصورة رقم02)

4- 3- ضريح سيدي محمد أبي جلال:

4- 3-1- الموقع:

يتواجد هذا الضريح في الجهة الغربية من المدينة، وبالضبط في الرحبة التي سُميت على اسمه أي رحبة سيدي محمد أبي جلال، وهو لا يبعد كثيرا عن ساحة الركابة حاليا.

4- 3-2- نبذة عن المؤسس وتاريخ التأسيس:

هو **سيدي محمد أبي جلال أمغاري** من ذرية الولي الصالح الشريف الحسني مولاي يعقوب بن محمد بن أحمد بن عبد الله، المعروف بجبل مغراوة، وقد استقر بأم عسكر وله نسل كثير، ومنهم فرقة في غريس يقال لهم أولاد سيدي إبراهيم المغراوي. (حشلاف، 1929، صفحة 112) (بلهاشمي، 1961، صفحة 276)

4- 3-3- إعادة تصور المخطط المعماري للضريح:

تعرض ضريح سيدي محمد أبي جلال للهدم خلال فترة الاحتلال الفرنسي، حسب ما ذكره لنا القائم عليه وبعض سكان الرحبة، ومن حُسن حظنا أننا وجدنا صورة قديمة له استطعنا من خلالها إعطاء وصف ولو محدود لشكله العام، كان يتم الوصول إليه بعد عبور درج يوصل إلى مدخل رئيسي مستطيل الشكل، الذي يؤدي بدوره إلى قاعة صغيرة وأقل ارتفاعا، حيث يوجد فيها مدخل يؤدي إلى الضريح، وهو عبارة عن قاعة مربعة الشكل بسيطة في مظهرها العام، تعلوها قبة مثمنة الأضلاع، ونجد القبر في وسط القاعة، أما من الخارج فقد زينت النهاية العليا للضريح بشريط زخرفي شُكل من مادة الآجر. (أنظر الصورتان رقم03 و04)

4- 4- ضريح سيدي موفق:

4- 4- 1- الموقع:

يقع هذا الضريح في الجهة الشرقية من المدينة، حيث أنه لا يبعد كثيرا عن رحبة عين البيضاء، التي أسسها الباي محمد الكبير.

4- 4- 2- نبذة عن المؤسس وتاريخ التأسيس:

هو محمد بن عبد الله بن موفق بوجلال، أحد أحفاد الولي الصالح سيدي محمد بوجلال. حيث ورث عنه الكياسة والعلم، وذلك ما جعل أهل معسكر يكرمونه في حياته وبعد وفاته بتخليد ثراه بضريح، أصبح فيما بعد مزارا لهم، أما عن ولادته فلا نجد تاريخا مضبوطا لكنه عاش خلال القرن التاسع عشر.

4- 4- 3- وصف المخطط المعماري:

يتم الوصول إلى الضريح بعد عبور ممر يتوسط المقبرة ومحفوف في جانبيه بأشجار السرو الخضراء، التي ترمز إلى الحياة عند العثمانيين، والضريح محاط بسياج حديدي يتخلله مدخلان يؤديان إلى المدخل الرئيسي الموجود في الجهة الغربية، حيث يبلغ مقاساته (2,25× 1م)، وهو مزين بإطار يعلوه عقد نصف دائري خال من الزخرفة، ونجد عليه باب خشبي، نصل من خلاله إلى قاعة صغيرة تحفظ فيها حاليا بعض الأغراض، كما فتح فيها مدخل يؤدي إلى الضريح, وهو عبارة عن قاعة مربعة الشكل تبلغ مقاساتها 3,85م تعلوها قبة مثمنة الأضلاع، كما فتحت في جدرانه الغربية والجنوبية نوافذ صغيرة مزدوجة مزينة بعقود نصف دائرية وعليها سياج حديدي، والملاحظ على الضريح أنه تعرض لبعض الإضافات، وذلك في توسيع قاعة جلوس الزوّار التي زُودت بمدخل آخر من الجهة الشرقية، ومجموعة من النوافذ. (قرمان، 2015، صفحة 187) (أنظر الشكل رقم03 والصورة رقم05)

4- 5- قُبة البايات:

4- 5-1- الموقع:

تقع في وسط مدينة معسكر في الساحة المسماة حاليا بساحة مصطفى بن التهامي، حيث أنها كانت ملاصقة للجامع الكبير.

4- 5-2- المؤسس وتاريخ التأسيس:

كانت هذه المحكمة في الأصل قبة، بُنيت من طرف الباي الحاج عثمان بن إبراهيم بتاريخ فاتح المحرم عام 1167هـ الموافق لـ29 أوت 1753م، وقد خصصت الدار الملاصقة لها لدفن هذا الباي، أما الجزء المتبقي فقد اتخذ كمقر لمحكمة قاضي معسكر حسب ما ذكره الآغا بن عودة المزاري في كتابه لطلوع سعد السعود وذلك في قوله:" ثم بنى الدار والقبة الملاحقة للجامع الأعظم بالمعسكر المعروفة عند الناس بقبة الباي إبراهيم لكونه مدفونا بها، وإلا فهي قبة الشيخ عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به، التي هي الآن محكمة قاضي المعسكر". (المزاري، 1990، الصفحات 284- 285)

تعرضت هذه المنشأة للإزالة خلال فترة الاستقلال، إذ أنها هدمت وأدمجت في بيت الصلاة للجامع الكبير، خلال التوسيعات التي أحدثت عليه في سنة 1962م. (قرمان، 2015، صفحة 201)

5- الدراسة التحليلية:

تعد الأضرحة من المنشآت المعمارية الدينية التي لاقت اهتماما كبيرا من طرف المسلمين، إذ أنها اعتبرت كطريقة مثلى لتكريم العلماء والأولياء الصالحين، وقد عرفها معماريا الجنرال "كوفي Cauvet" بأنها منشآت جنائزية صغيرة ومقببة، بأشكال مختلفة ومتعددة حسب طبيعة كل منطقة(Cauvet, 1923, p. 435) ، وعليه فقد اتخذت الأضرحة في تصميمها المعماري الشكل التقليدي المعروف، وهو مربع فوقه قبة، على واجهاته الأربع فتحات عبارة عن عقود، وقد استعمل هذا التخطيط لأول مرة في "باليرمو palermo " بصقلية، كما يوجد في بعض الأضرحة صحن ذو بوائك يمتد أمام حجرة القبر، كما هو

الحال في أضرحة بني مرين وبني زيان بتلمسان، مثل ضريح سيدي أبي مدين وسيدي إبراهيم. (عزوق، 2007، صفحة 138)

لقد تعددت الأضرحة في مخططاتها المعمارية واتخذت أشكالا مختلفة حسب مكانة صاحب الضريح في المجتمع وكذلك طبيعة المنطقة الجغرافية، وقد قدم لنا الجنرال كوفي Cauvet في مقاله هذه الأنواع نوردها على النحو الآتي:

- أضرحة ذات قباب نصف كروية.
- أضرحة عبارة عن أكواخ صغيرة مسقفة بسقف مسطح أو بسقف يعلوه قرميد.
- أضرحة ذات قباب مغطاة بقرميد.
- أضرحة ذات قباب مخروطية.
- أضرحة هرمية الشكل بدون شرفات. (Cauvet، 1923، صفحة 435) (عزوق، 2007، صفحة 138)

ورغم تنوع الأضرحة وظهورها بأشكال مختلفة ومتعددة، إلاّ أنّ النوع الشائع في الجزائر والأقدم هو الأضرحة المربعة ذات قباب نصف كروية محمولة على منطقة انتقال مثمنة الشكل، وفي بعض الأحيان لا نجد منطقة انتقال، ويظهر لنا الضريح على شكل مربع توضع فوقه القبة مباشرة (Marçais، 1954، صفحة 300)، وهذا الطراز هو الشائع في الأضرحة الموجودة في مدينة معسكر، إذ أن ضريح أبي راس الناصري وسيدي بوسكرين وسيدي محمد أبي جلال وسيدي موفق اتخذت الشكل المربع الذي تعلوه قبة نصف دائرية مضلعة، ترتكز على مربع انتقل فيه إلى المثمن عن طريق حنايا ركنية مجوفة وبسيطة، نجد في جدرانها الداخلية الأربعة عقود نصف دائرية صماء، أما القبر فهو بسيط يخلو من الشواهد المزينة والمبينة فيها تاريخ الوفاة والأدعية المعروفة في بعض الأضرحة والقبور التي تعود إلى العهد العثماني في كل من مدينة الجزائر وتلمسان

وقسنطينة في مقبرتي سيدي الكتاني والجامع الأخضر. (دحدوح، 2009- 2010، صفحة 536)

6. خاتمة:

توصلنا من خلال هذا البحث الذي قمنا به حول أضرحة مدينة معسكر إلى مجموعة من النتائج نذكرها على النحو الآتي:

- اشتهرت معسكر بكثرة الأضرحة خلال الفترة العثمانية، وذلك مرتبط باحتضانها للعلماء والصالحين، الذين كرّسوا حياتهم للتدريس ومحاربة البدع والخرافات، الأمر الذي دفع بأهلها لتكريمهم وتخليد ذكراهم ببناء الأضرحة، وكذلك خصّهم بالزيارات.

- تنقسم أضرحة مدينة معسكر إلى قسمين:

- القسم الأول: يتمثل في أضرحة ملحقة بزاوية، حيث يكون المدفون فيه هو مؤسس هذه الزاوية.

القسم الثاني: عبارة عن أضرحة ملحقة بمقبرة أو حي.

- تشابهت التخطيطات المعمارية لأضرحة مدينة معسكر مع نظيرتها الموجودة في الجزائر عامة، وانفردت عنها ببساطة مظهرها وخلوها من الزخارف الفنية.

- توزعت هذه الأضرحة تقريبا في كل رحاب المدينة، وصارت علما لكل عالم أو ولي صالح، يخصونهم بزيارات منتظمة على طول السنة، تتبعها صدقات للفقراء والمساكين.

- حافظ أهل مدينة معسكر على هذه الأضرحة وذلك بترميمها وصيانتها وحمايتها من كل عوامل التلف والاندثار.

7- الملاحق:

الشكل 1: مخطط زاوية وضريح أبي راس الناصري

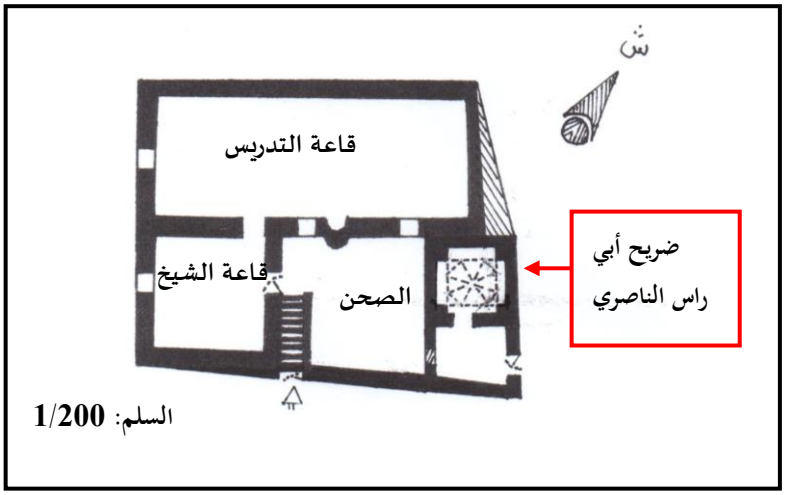

المصدر: من عمل الباحث

الشكل 2 : مخطط ضريح سيدي بوسكرين

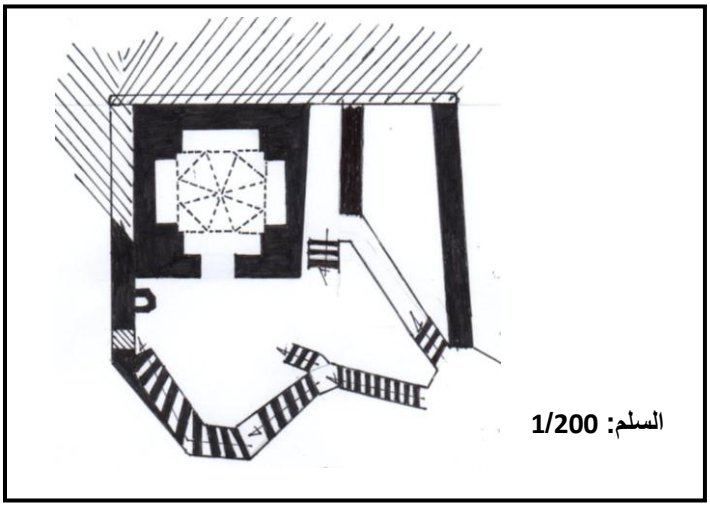

المصدر: من عمل الباحث

الصورة 1: ضريح سيدي بوسكرين خلال فترة الاحتلال الفرنسي

المصدر: أرشيف مكتبة بلدية معسكر

8- قائمة المراجع:

1. ابن منظور، (د.ت)، *لسان العرب*. (عبد اللّه العلايلي، يوسف الخياط، المحرر) بيروت: دار لسان العرب.

2. الآغا بن عودة المزاري، (1990)، *طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر إلى أواخر القرن التاسع عشر* (الإصدار ط1). (تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز، المحرر) لبنان: دار الغرب الإسلامي.

3. ابن سحنون أحمد الراشدي، (1973). *الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني*. (المهدي البوعبدلي، المحرر) قسنطينة: مطبعة البعث.

4. أبو القاسم سعداللّه، (1998)، *تاريخ الجزائر الثقافي* (الإصدار ط1). د،م: دار المغرب الإسلامي.

5. الولي طه، (1988)، *المساجد في الإسلام*. لبنان: دار الملايين للعلم.

6. بن بكار بلهاشمي، (1961)، *مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب*. تلمسان: مطبعة ابن خلدون.

7. الباشا حسن ، (1979)، *الآثار الإسلامية*. القاهرة: دار النهضة العربية.

8. بن بلة خيرة، (2007- 2008)، *المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني*. الجزائر: معهد الآثار، جامعة الجزائر.2

9. ماهر سعاد، (1971). *مساجد مصر وأولياؤها الصالحون* (الإصدار 46). مصر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

10. سيدي عبد اللّه بن سيدي علي حشلاف، (1929). *سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول*. تونس: المطبعة التونسية.

11. دحدوح عبد القادر، (2009- 2010)، *مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، دراسة عمرانية أثرية*. الجزائر: معهد الآثار، جامعة الجزائر.

12. قرمان عبد القادر،(2014 -2015)، *عمران وعمارة مدينة معسكر خلال العهد العثماني، دراسة أثرية عمرانية ومعمارية*. الجزائر: أطروحة دكتوراه، معهد الآثار، جامعة الجزائر.2

13. عزوق عبد الكريم، (2007)، *الأضرحة ببجاية، دراسة نموذجية*. (مجلة دراسات تراثية، المحرر) الجزائر: دار الملكية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام.

14. غالب عبد الرحيم، (1988)، *موسوعة العمارة الإسلامية* (الإصدار ط1). بيروت: المطبعة العربية.

15. كمال الدين سامح، (1988). *العمارة الإسلامية في مصر* (الإصدار ط2). القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.

16. كونل أرنست، (1966). *الفن الإسلامي*. (أحمد موسى، المترجمون) بيروت: دار صادر.

17. مرزوق محمد عبدالعزيز، (1965). *الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه*. بغداد: مطبعة أسعد.

18. لمعي مصطفى صالح، (د،ت)، *القباب في العمارة الإسلامية*. بيروت: دار النهضة العربية.

19. نوار سامي محمد، (2002)، *الكامل في مصطلحات العمار الإسلامية من بطون المعاجم اللغوية*. الإسكندرية: دار الوفا لدنيا الطباعة والنشر.

المراجع بالأجنبية:

1. Marçais. (G). (1923). L'architecture musulmane d'occident, Arts et métiers graphiques. Paris : 1954.

2. Cauvet. (C). (1923). « Les Marabouts, petits monuments funéraires et votifs du nord de l'Afrique », revue Africaine. Paris : p435.